وقفة مع الشيخ الكبير

د. عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف :

<http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب :

<https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3_Hje4JaCw>

الأولى

سأل الحجاج شيخاً مسنّاً قال كيف طُعْمُك؟

قال إذا أكلت ثَقُلتُ، وإذا تركت ضَعُفتُ.

قال كيف نكاحك؟

قال إذا بُذلَ لي عجزتُ وإذا مُنعت شرهتُ.

قال: كيف نومك؟

قال: أنام في المجمع وأسهر في المضجع.

قال: كيف قيامُك وقعودُك ؟

قال: إذا أردت الأرض تباعدت مني وإذا أردت القيام لزمتني

قال: كيف مشيتك ؟

قال تَعقُلني الشعرة وأعثر بالبعرة.

وقيل لشيخ ما صنع بك الدهر؟

قال: فقدت المطعم وكان المنعم، وأجمت النساء (أي: أعافهن) وكن الشفاء، فنومي سنات، وسمعي خفات، وعقلي تارات ﭽ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉﮊ ﮋ ﮌ ﮍﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﭼ الروم: ٥٤

الله أكبر ،، ما بين عشيّةٍ وضحاها ، يقف العبد على مرحلة من مراحل العمر الصعبة ، مرحلة التمام والختام ففي لمحة بصر مرت السنون والأعوام ، وتلاحقت الأيام تلو الأيام ، ومضت الطفولة بضعفها ، وتصرّمت أيام الشباب بقوتها ، وتجاوز العبد الأربعين من عمره وبلغ الخمسين وأدرك الستين والسبعين ، ودنا العبد من آخر لحظات الحياة الدنيا ، فقد مرت السنون والأعوام كنسجٍ من الخيال ، أو ضربٍ من الأحلام

بكيْتُ على الشّبابِ بدمعِ عيني

فلم يُغنِ البُكاءُ ولا النّحيبُ

فَيا أسَفاً أسِفْتُ على شَبابٍ

نَعاهُ الشّيبُ والرّأسُ الخَضِيبُ

عريتُ منَ الشّبابِ وكنتُ غضاً

كمَا يَعرَى منَ الوَرَقِ القَضيبُ

فيَا لَيتَ الشّبابَ يَعُودُ يَوْماً،

فأُخبرَهُ بمَا فَعَلَ المَشيبُ

توالت الأيام وتعاقبت السنوات والأعوام وإذا بالفتى الصغير يصبح شابا وينتقل من ملاعب الصبا إلى متاعب الشباب وآماله وآلامه ، وبعدها يجد المرء نفسه على أبواب الأربعين ثم الخمسين والستين وإذا بربيع العمر قد انقضى، وجاء بعده الصيف بحرارته اللاهبة وشمسه المحرقه وهذه سنة الحياة التي لا مفر منها ﭽ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉﮊ ﭼ الروم: ٥٤

فهلّا وقفنا مع هذه المرحلة الأخيرة من حياتنا .

هلا وقفنا مع كبار السن الذين رقّ عظمهم ، وكبر سنّهم ، وخارت قوّاهم ، وشابت رؤوسهم ، كبار السنّ الذين رحم الله ضعفهم، فقال سبحانه : ﭽ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﭼ النساء: ٩٨ – ٩٩

كبار السن الذين نجلّهم إكبارا ، ونعزّهم تقديرا .

كبار السن الذين رسموا للجيل طريق النجاح.

يا كبار السنّ تالله إنّكم كبارٌ في قلوبنا ، وكبار في نفوسنا ، وكبار في عيوننا .

كبار في عظيم فضلكم وإحسانكم ، أنتم الذين علمتم وبنيتم وقدّمتم ، فإجلالكم وتوقيركم من سنن الأنبياء ، وشيم الأبرار والأوفياء ، قال تعالى ﭽ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﭼ القصص: ٢٣ - ٢٤

يا أيها الجيل، ارحموا كبار السنّ، ارحموا ضعفهم، ووقروا شيبتهم، ومنزلتهم، يقول : «إن من إجلالِ الله إكرامَ ذي الشيبَةِ المسلمِ» رواه أبو داود

قال مالك ~ : «ومن تعظيم اللَّه عزّ وجلّ تعظيم ذي الشيبة المسلم» رواه مالك.

يا أيها الجيل أحسنوا إلى كبار السن، الذين ضاعت حقوقهم اليوم، وأصبحوا غرباء في مجالسنا، ثقلاء في محافلنا، قلّ من يؤانسهم ويجالسهم، بل إذا تكلّم الكبير قاطعه الصبيان، وإذا أبدى مشورته سفّههُ صغار الأحلام فضاعت حكمته، ونسخت خبرته، وتزعزعت في النفوس مكانته، فيا كبار السنّ ما عند الله خير لكم وأبقى، وها هو أعربي يقول يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ» رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب، وصححه الألباني .

فيا كبار السنّ يا من أمدّ الله في أعماركم حتى بلغتم من العمر أواخره ، فمنكم تجاوز الستين ، وأدرك السبعين وأصبح قاب قوسين أو أدنى من عالم الآخرة والنبي يقول «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ» رواه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

قَد نادَتِ الدُنيا عَلى نَفسِها

لَو كانَ في العالَم مَن يَسمَعُ

كَم واثِقٍ بِالعُمرِ واثَقتُهُ

وَجامِعٍ بَدَّدتُ ما يَجمَعُ

كان السلف الصالح إذا بلغ الرجل منهم الأربعين لزم المسجد ، وتمثّل قوله تعالى ﭽ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ الأحقاف: ١٥

واليوم يفجع العبد اليوم من حالِ بعض كبار السنّ الذين شابت رؤوسهم، وتجاوزت أعمارهم الستين والسبعين وهم يعيشون مراهقة الغلمان، وفكر الشبّان

لَيَقبُحُ بِالفَتى فِعلُ التَصابي وَأَقبَحُ مِنهُ شَيخٌ قَد تَفَتّى

فيا كبار السن يا من بلغتم من السنّ ما بلغتم وشبتم شيبة في الإسلام ، والنبي يقول : «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ» رواه الترمذي .

ويقول : «الشَّيْبُ نُورُ الْمُؤْمِنِ لَا يَشِيبُ رَجُلٌ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِكُلِّ شَيْبَةٍ حَسَنَةٌ وَرُفِعَ بِهَا دَرَجَةً» رواه البيهقي من حديث عبدالله بن عمرو وصححه الألباني في الصحيحة (1242) .

إِنَّ المشِيبَ رِداءُ الحِلمِ والأَدبِ

كما الشبابُ رداءُ اللَّهوِ واللعبِ

إن رجالاً من كبار السنّ أدركوا حقاً أن الشيب نذير ﭽ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯﯰ ﭼ فاطر: ٣٧

فشمروا عن ساعد الجدّ ، وأحسنوا الوفادة على الله، فأشغلوا أوقاتهم بالعمل الصالح ، والمسارعة في الخيرات ، فنبي الله يقول محذراً : «أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ، حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً» رواه البخاري .

يقول ابن حجر ~ : وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اسْتِكْمَالَ السِّتِّينَ مَظِنَّةٌ لِانْقِضَاءِ الْأَجَلِ . فتح الباري شرح صحيح البخاري (11/240)

ورضي الله عن الصحابي الجليل عمرو بن الجموح فبعد ما كبر سنّه ورقّ عظمه وكان أعرجا شديد العرج وجاءت غزوة أحد منعه أبناؤه وقالوا له أن الله قد عذرك ونحن نكفيك فأتى النبي فقال: يا رسول الله إن هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك والله إني لأرجو أن أستشهد في سبيل الله فأطأ بعرجتي هذه الجنة فقال رسول الله أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد وقال لبنيه وما عليكم إلا أن تدعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة فخرج مع رسول الله وقتل يوم أحد شهيدا .

قِيْلَ لنَافِعٍ: مَا كَانَ يَصْنَعُ ابْنُ عُمَرَ فِي مَنْزِلِهِ؟ قَالَ: لاَ تُطِيْقُونَهُ, الوُضوءُ لِكُلِّ صَلاَةٍ، وَالمصحفُ فِيمَا بَيْنَهُمَا.

وهذا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ يقول: لَوْ قِيْلَ لِحَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ: إِنَّكَ تَمُوْتُ غَداً، مَا قَدِرَ أَنَّ يَزِيْدَ فِي العَمَلِ شَيْئاً. قُلْتُ: كَانَتْ أَوْقَاتُهُ مَعْمُوْرَةً بِالتَّعَبُّدِ وَالأَوْرَادِ.

سير أعلام النبلاء (7/107) .

يقول إبراهيم الحربي : صحبت الإمام أحمد عشرين سنة صيفًا وشتاء وحرًا وبردًا وليلا ونهارًا فما لقيته فِي يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس

وهذا مالك بن دينار ~ بعد ما كبر سنّه يقوم وهو مَحْزُونَ الصَّوْتِ قد وضع رَأْسَهُ فِي مِحْرَابِهِ ثُمَّ يَقُولُ: «إِلَهَ مَالِكٍ قَدْ عَلِمْتَ سَاكِنَ النَّارِ مِنْ سَاكِنِ الْجَنَّةِ فَأَيُّ الرَّجُلَيْنِ مَالِكٌ؟ ثُمَّ يَبْكِي » .

هذه قطوفٌ من أحوال بعض كبار السن، واليوم نرى كثيرا من بعض كبار السن لم يزدهم طول العمر إلا فسادا وإفسادا ، وانغماسا في اللهو في والآثام، ولا أدري والله متى يفيق هؤلاء؟

متى يتداركون ما فات من أعمارهم ؟

يا كبار السن أنتم كبارنا وخيارنا ، أنتم أهل الفضل والإحسان فينا ، فقد جرّبتم كثيراً ، وعرفتم الأيام ، وقارعتم الخطوب ، وعشتم في تقلبات الأحوال ، فأصبتم الحكمة ، وملكتم الخبرة وجاء في منثور الحكم : من طال عمره نقصت قوة بدنه ، وزادت قوّة عقله ، فأنتم أهل العقل الرزين ، والرأي السديد ، أنتم قدوةٌ لأجيالنا وأبنائنا .

يا كبار السن، هلا عفوتم عن مذكرٍ وواعظٍ يقول لكم كم بقي من الأعمار؟ ماذا ينتظر أحدكم؟

إلى متى الغفلة والتغافل ؟

إلى متى يعيش المرء في الخوض مع الخائضين ، والاعتداء على أعراض المسلمين ، بالهمز واللمز والغمز ناهيكم عن الغيبة والنميمة والسب والشتم واللعن؟

عجبٌ !! والله من عبدٍ يستحي الله من شيبته ، وكبر سنّه ، وهو عند الصلاة مع الكسالى المتخلفين، وفي الليل مع الساهرين النائمين، وفي النهار مع الغافلين اللاهين .

أيها الشيخ الكبير هلا سألت نفسك إلى أين تسير؟ نعم إلى أين تسير؟

تسير إلى مقابر لا تجيب \*\*\* إذا دعاهنّ الكئيبُ.

حُفرٌ مسقّفة عليـ \*\*\* هنّ الجنادل والكثيب.

فيهن ولدان وأطفالٌ \*\*\* وشبان وشيب.

كم من حبيب لم تكن \*\*\* نفسي بفرقته تطيب.

غادرته في بعضهن \*\*\* مجندلاً وهو الحبيب.

فماذا قدمت لآخرتك ؟

أيها الشيخ المبارك هلاَ سألت نفسك عن حالك مع تلاوة القرآن وسماعه ؟

عن وردك من الأذكار وقيام الليل والاستغفار بالأسحار ؟

فأين أنت من الثلث الأخير من الليل ؟

أين أنت من كثرة الخطا إلى المساجد ، وطول المكث في المسجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؟

ماذا أنجزت لأسرتك ؟ وماذا زرعت في أولادك ؟

أين أنت من مجالس العلم والعلماء ؟

فالملائكة تحفّهم والرحمة تغشاهم، والسكينة عليهم تتنزّل وسيئاتهم تكفّر، وحسناتهم تتضاعف، أسئلةٌ تهزُّ القلوب هزّاً أيها الشيخ الكبير هلا دنوت من ربك وأصلحت من حالك، واغتنمت ما بقي من حياتك؟

أيها الشيخ الكبير اعلم أن الله رحيم فمن تاب تاب الله عليه، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ شِبْرًا، تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيْهِ يَمْشِي، أَقْبَلَ إِلَيْهِ هرولة .

العُمُرُ يَنْقُـُص والذنوبُ تَزِيدُ

وتُقَالُ عَثَرَاتُ الفتى فيعـودُ

هلْ يَسْتَطِيعُ جُحُودَ ذنبٍ واحدٍ

رَجُلٌ جَوَارِحُهُ عَليه شُهُـودُ

والمرءُ يُسأل عَنْ سِنِيهِ فَيَشْتَهِي

تَقْلِيلَهَا وعَنِ الْمَمَاتِ يحـيدُ

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم ..

الثانية

أيها الشيخ الكبير «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ»

فتذكر هادم اللذات تذكر يوم الجنائز تذكر الوداع، والله عمّا قريب سترحل كما رحل أقرانك،

وينساك إخوانك وخلّانك ،،

ويسألك الله تعالى عن عمرك المديد فيما أفنيته ؟

فمالي أراك على الذنوب مواظبا

أأخذت من سوء الحساب أمانا؟!

لا تغفلنّ كأن يومك قد أتى

ولعل عمرك قد دنا أو حانا

**انتهت الخطبة**